

دور الوعي التاريخي في بناء المقاومة الثقافية للمجتمع الجزائري: قراءة في

فلسفة التاريخ لأبي القاسم سعد الله-رحمه الله-

أ. سامية مرابطين / المدرسة العليا للأساتذة قسنطينة.

يعتبر علم التاريخ ذلك الفرع من المعرفة الإنسانية الذي يستهدف استقراء أحداث الماضي وتحقيقتها وتسجيلها محاولا إبراز الترابط بينها وتوضيح العلاقات القائمة بينها، فكان بذلك الذاكرة القومية للفرد والمجتمع على حد سواء، ولن تتأسس هذه القيمة إلا بما تقدمه فلسفة التاريخ من قراءة كلية واعية تستنبط المعنى من جملة الأحداث التاريخية الجزئية لتؤكد دور الوعي التاريخي في تكريس ثوابت المجتمع وأسس وجوده وتفتح الطريق أمامه لاستشراف المستقبل وتحقيق التقدم والرفي.

ونظرا لهذه الأهمية لم يغفل مؤرخو الجزائر تأكيد دور الوعي التاريخي في تشييد المقاومة الثقافية الى جانب المقاومة العسكرية والمسلحة وتكريس مرتكزات شخصية المجتمع الجزائري ومقوماته، ومن بين هؤلاء شيخ المؤرخين الجزائريين الدكتور أبو القاسم سعد الله (1930-2013) الذي مافتى يردد في كتاباته وأبحاثه ضرورة فهم تاريخ الجزائر وأخذ العبر منه، وهذا لن يتم في نظره إلا بالوعي التاريخي، ولمعالجة هذا هذه القضية الفكرية جاءت هذه الورقة البحثية لتتوغل في أعماق فلسفة التاريخ عنده، لذا فالإشكال المطروح: كيف يساهم الوعي التاريخي في تشكيل المقاومة الثقافية من منظور أبي القاسم سعد الله؟ وأين تتجلى مظاهر المقاومة في فلسفة التاريخ عنده؟

أولا: مفهوم المقاومة الثقافية والوعي التاريخي وتجلياتها في كتابات شيخ

المؤرخين الجزائريين.

لاجادل في أن ما يميز الإنسان عن غيره من الكائنات هو ذلك الوعي بتاريخه وقدرته على تسجيل الأحداث التاريخية ومراجعتها لتوظيفها حاضرا والاستفادة منها مستقبلا وهنا بالتحديد تنكشف لنا أهمية التاريخ في أنه يساعدنا على إدراك

ماهيتنا التاريخية وفهم عمق حضارتنا وأمتنا والاستفادة من هذا في صنع الأفضل والأرقى.

وفي الحقيقة لا يمكن الاستفادة من هذه الأهمية إلا بعد تقديم الأحداث التاريخية في صورة كلية مشوقة وجاذبة للعقل الإنساني وباعثة للوعي التاريخي تتجسد من خلالها معالم نظرية فلسفية للتاريخ، استطاع من خلالها الفلاسفة فهم الحاضر واستشراف المستقبل على ضوء الماضي، فشكل هذا نوعاً من السند الفكري والمقاومة الثقافية التي يستند إليها الإنسان لتجاوز مختلف العراقيل التي تواجهه في الحياة.

وإذا شاع بين الكثير منا أن المقاومة لا تخرج عن نطاق الحروب والصراعات العسكرية فإن المقاومة الثقافية أعظم شأنًا وأكثر فعالية من الأنواع البدائية الأخرى، كونها تركز على الوعي الإنساني والقدرة على توظيف السندات الثقافية والتاريخية المختلفة، لذا فإن المؤرخ المتميز هو الذي يحسن تقديم قراءة فلسفية لأحداث التاريخ الماضية يتمحور حولها الوعي التاريخي للأفراد والمجتمعات على حد سواء.

ولقد تفتن العديد من الباحثين لأهمية الوعي بالتاريخ في إدكاء فتيل المقاومة الثقافية لمواجهة مخاطر الاستعمار الثقافي وتحديات الغزو الثقافي الذي مافئ ينخر في هوية الفرد والمجتمع، ومن بين هؤلاء نجد المفكر الجزائري وشيخ المؤرخين الجزائريين أبا القاسم سعد الله - رحمه الله - (1930_2013) الذي ما توقف في مشروعه الفكري الضخم يلح على ضرورة الاستفادة من التاريخ وتوظيفه في الحفاظ على مقومات الشخصية الوطنية، فنجدته يفتتح كتابه "بحوث في التاريخ العربي الاسلامي" واصفا الهموم التي تؤرقه كباحث في التاريخ قائلاً: "إنها بحوث تحمل هموما تقض مضجع كاتبها، وهو يحاول فهم ماكان عليه العرب والمسلمون من منعة وقوة وتأثير، وماهم فيه اليوم من استباحة وضعف وخذلان"¹.

وقبل التوغل في عرض تحليلات الوعي التاريخي في كتابات سعد الله وجب علينا التوقف أمام المقصود بالوعي التاريخي، إذ يعرف هذا الأخير بأنه "التبصر الدائم

بالتاريخ القريب والبعيد الذاتي والموضوعي الحاصل أي التبصر من خلال التوغل المركز في قراءة صفحات التجارب البشرية الكثيرة والمتنوعة وفحصها وتدبر أبعادها وخلفياتها، واكتشاف المؤثرات التي ساهمت في بعثها وإيجادها قصد التزود والاعتبار"²، فالملاحظ إذن أن الاهتمام بدراسة التاريخ والتفنن في الكتابة التاريخية يساعدان في حفظ الأمة من الاستلاب والتلاعب بمقومات هويتها الوطنية.

ولقد ظهر الوعي التاريخي بمرحلة حاسمة في تاريخ البشرية في القرن 19، حيث ظهرت في هذا القرن الدولة المعاصرة بمقوماتها الأساسية ومهامها الجديدة التي تضطلع بها والأهداف الأساسية التي حددتها لتطوير مجتمعاتها، وتزامن مع نمو هذا الوعي تغيير على الكتابة التاريخية وعلى فن التأريخ الذي غدا من بين العلوم الانسانية، بمنهج وموضوع وأدوات بحث متميزة.

وتتحلى قيمة الوعي التاريخي إلى كون التاريخ معرفة وتجربة، فالتجربة الإنسانية متواصلة ومتصلة الحلقات، ويعبر عن أحد مقومات الشخصية، حيث أن الفهم الصحيح لمجريات وأحداث التاريخ يعين على بناء الشخصية السوية ووقايتها من الذوبان، فالتاريخ هو الذاكرة القومية، والأمة التي لا تاريخ لها أمة ضائعة في مرحلة صراع وعدم استقرار وهنا تنبني المقاومة الثقافية التاريخية.

ولقد عمل الكثير من المؤرخين الجزائريين على كتابة التاريخ الوطني، وعلى رأس هؤلاء الشيخ مبارك الملي، وأحمد توفيق المدني، وعبد الرحمن الحيلالي وغيرهم، وكانت كتاباتهم ذروة تطور الوعي بالتاريخ الجزائري في تلك المرحلة. ولقد حمل الدكتور سعد الله المشعل في هذه المرحلة المعاصرة مؤكدا على ضرورة التركيز على كتابة تاريخ الجزائر بكل نزاهة وموضوعية، فخط بذلك معالم مدرسة تاريخية جزائرية بمنهج عصري ولسان عربي وروح إسلامية مغذاة بوطنية أصيلة، لتقف في وجه عواصف المشككين في الوحدة التاريخية والهوية الوطنية وفك الارتباط الوثيق

بمخلفات الاحتلال الفرنسي ومخططات المستعمر للقضاء على تاريخ الوطن إذ يقول:

"...فلاكتف هنا بدعوة المؤرخين ولاسيما طلاب التاريخ في المعاهد والجامعات إلى الاهتمام بتاريخ الأمة العربية الاسلامية في شموليته وإلى إعادة النظر في المعطيات التاريخية التي يقدمها الآخرون عنا، وإلى التسلح بالمناهج العلمية لمواجهة تحديات المرحلة"³، لقد كانت هذه دعوة من صاحب كتاب "مسار قلم" إلى ضرورة الاهتمام بكتابة تاريخ الجزائر وتاريخ الامة الاسلامية بصفة عامة قبل أن يتعرض للتشويه والتزييف، وهي دعوة ما فتئت تتكرر في معظم مؤلفاته—إن لم نقل—كلها لتعبر عن ذلك الهم الذي كان يحمله رحمه الله خوفا من ضياع تاريخ الجزائر إذ يقول "إن اهتمامنا بقضايا التاريخ قد لا يكون هو نفس اهتمامات المثقفين في المشرق، يرجع ذلك إلى أن تاريخ الجزائر قد تعرض إلى تشويه فظيع على أيدي كتاب "المدرسة الاستعمارية" في غياب مدرسة وطنية موازية، وحين حصلنا على استقلالنا كان علينا أن نصفي تاريخنا من روح الاستعمار وأن نلجأ في ذلك إلى العلم والمنهجية واللغات الأخرى، لأن مؤرخي الاستعمار قد استعملوا كل ذلك ضدنا"⁴.

لقد أراد سعد الله في مشروعه الفكري أن يؤسس لنظرية فلسفية في التاريخ تقوم على مرتكزين أساسيين: أولها: تشريح حالة الانحلال والتدهور التي تطبع تاريخ وطننا وأمتنا على حد سواء وهو ما يهدد كيانها ويجعلها عرضة للاضمحلال والزوال فأكد في أكثر من مناسبة أن مقاومة مخلفات الحركة الاستعمارية في التاريخ لن يكون إلا ببرز نخبة من المثقفين والمفكرين الجزائريين الذين يشرحون الحقائق التاريخية بكل موضوعية بالتركيز على التاريخ الجماعي والابتعاد عن التعظيم والتفخيم لفرد أو حزب أو أسرة ما، أما المرتكز الثاني فقائم في قلقه—رحمه الله—على المستقبل، فمن أبجديات فلسفة التاريخ أن المستقبل مرتبط بالماضي عن طريق الحاضر ارتباطا عضويا ولا يمكن للتاريخ أن يصل إلى مرتبة

الوعي الفلسفي دون وعي بالمستقبل، وهذا بدوره يشير الجزع على المصير، ويتجلى هذا في قوله "من الأكيد أن الذي لا يتقدم يتأخر بالمفهوم الحضاري الجدلي، وسوف نحتاج إذا لم نغير بأنفسنا إلى نوع آخر من الاستعمار وربما أشد عنفا ورعبا ليقهرنا باسم الصداقة والتعاون تارة وباسم العولمة والتبعية تارة أخرى".⁵ وكان رحمه الله مستاء من وضع الكتابة التاريخية مما يهدد وجودنا إذ يقول "والجزائريون من الشعوب التي عزفت عن الكتابة كهواية، ومن ثمة لم يحذقوها صنعة...، فبينما نجد لهم مواقف بارزة في البطولة والدفاع عن النفس وأدوارا في الحضارة، فإنهم لم يكونوا يهتمون بتسجيل ذلك لأحفادهم فيضيع خبرهم ويدركه النسيان ويتراكم عليه الضباب وتعمل فيه يد المسخ والتشويه من طرف أعدائه"⁶

إن هذا القلق على المستقبل هو الذي عبر عنه سعد الله بالهموم إذ يقول "إن هذه الهموم هي التي استفزت القلم الذي كتب البحوث وهي التي حركت نبض كل حرف فيها، فالشريط الذي نشاهده منذ عدة عقود ولا يزرع إلا اليأس ولا يقود إلا إلى الإحباط، ورغم ذلك فإن كاتب هذه البحوث لم يكن أبدا متشائما في نظرته إلى المستقبل العربي الإسلامي"⁷.

يظهر لنا من هذه الأمثلة وغيرها أن شيخ المؤرخين الجزائريين كان يهدف إلى تعزيز الوعي التاريخي في ذهن كل جزائري من جهة والتركيز على الكتابة التاريخية الموضوعية من جهة ثانية، وهذه المهمة لا توكل إلى المؤرخ فقط بل إلى كل مواطن معتر بانهما ووطنيته إذ يقول "فالقول أن كتابة التاريخ من عمل المؤرخين وحدهم هو قول خاطئ في نظري، إن الكتابة التاريخية قدر مشترك بين جميع المواطنين، ولكن كل فئة منهم لها دورها وتفسيرها وموقفها من الأحداث، وهذا هو الفرق بين المؤرخ وغيره"⁸.

ثانيا: تحليل معالم الوعي التاريخي عند أبي القاسم سعد الله:

لم يؤسس أبو القاسم سعد الله نظرية في فلسفة التاريخ كباقي النظريات المعروفة، إلا أن معالمها بدت واضحة جلية من خلال طرحه لإشكالية الوعي التاريخي في كذا مرة، لأنه كان يؤمن أنه لا سبيل لمقاومة الاستعمار والمخاطر المعاصرة إلا بالتعبئة التاريخية والمقاومة الثقافية على حد سواء، وفي حوار له نشرته جريدة الحقائق الأسبوعية حلل سعد الله واقع الثقافة التاريخية في الجزائر قائلا:

"لدي شعور تدعّمه الشواهد والمعاشية وهو أن الجزائري يمر بمرحلة اكتشاف الذات فهو لم يدرس تاريخ الجزائر الشامل، ولا تاريخ العرب والإسلام ولا تاريخ العالم، وتكاد معلومات الجيل الحاكم الآن عن التاريخ تنحصر فيما درسه أو سمعه عن تاريخ فرنسا وبعض رموزها في السياسة والحروب والآداب والفنون وهو الآن يكشف نفسه دون أن يشعر أنه ينتمي إلى وطن صغير اسمه الجزائر، لا إلى إقليم اسمه المغرب العربي أو الشرق الأوسط ولا إلى أمة إسلامية مترامية الأطراف وكثيرة السكان.... وبديل اهتمام الجزائري بما في وطنه من وحدة وتنوع، من ثورة وقوة، أخذ يهتم بعرشه وعشيرته وقريته ومدينته... هذه المحلية الضيقة نتج عنها جهل أو تجاهل للآخرين والتفوق الذاتي".⁹

إن المتأمل في هذا القول يجد أن الوعي التاريخي يكاد يبدو ضيقا عند المواطن الجزائري، وأن معرفة الحقائق التاريخية تكاد تنعدم وإن وجدت فإنها ستكون محلية قائمة على العصبية والقبلية وهو ما يؤدي إلى التشتت والتشرذم بدل الوحدة والاتفاق في وعاء الوحدة الوطنية وهو ما يسهل على العدو أيا كان تثبيت معاول الهدم والتخريب وإخماد نار المقاومة من خلال القضاء على ماضينا وتراثنا التاريخي، "إن أول المتصدرين لكتابة تاريخ الجزائر في جميع عصوره- يقول سعد

الله-هم الفرنسيون، بحكم استعمارهم لبلادنا ومعرفتهم لتفاصيلنا وطمعهم في الإبقاء على التأثير علينا والمحافظة علينا في فلكنهم¹⁰.

ولقد نتج عن غياب هذا الوعي التاريخي عند باحثينا وطلبتنا وشبابنا الإيمان بحقائق مزيفة ومشوهة اعتبرها سعد الله من أخطر مخلفات الاستعمار الفرنسي ومن سلبيات الحركة الكولونيالية التاريخية منها على سبيل الذكر لا الحصر¹¹:

✓ نفي الوحدة الوطنية عن المجتمع الجزائري، فالجزائر تبقى في نظرهم منطقة جغرافية من العالم تداولت عليها مختلف الشوب ولا وجود لشعب أو أمة أو كيان أو مجتمع متماسك، وإنما هناك قبائل متنافرة متنازعة تخوض حروبا مستمرة ولا تخضعها إلا القوى كالرومان والأتراك والفرنسيين.

✓ تركيز هؤلاء المؤرخين في كتاباتهم على التاريخ الاقتصادي والإداري والعسكري جريا وراء الاستعمار والإدارة وتحركات الجيش وقواده.

✓ لم يهتم المؤرخون الفرنسيون بالتأريخ إلا للعهد (1830-1954) وكتبوا عن سياستهم وتغييرا للحكومات الفرنسية وعن المحركات الأوروبية أما تاريخ العرب والمسلمين فقد ظل عهدا غامضا حسبهم.

إن هذه السلبيات وغيرها ما زالت تنفث سمومها إلى يومنا الحالي لتبقينا تحت التبعية الثقافية والتاريخية للمحتل بعد مرور أكثر نصف قرن على الاستقلال السياسي، وتجسدت هذه التبعية مثلا في عزوف الكثير من الجزائريين عن تدوين تاريخهم "فقد وجدنا الجزائريين بالقياس إلى شعوب أخرى مقلين في تسجيل حوادثهم وأخبارهم،... فبينما تكتب بعض الشعوب الأخرى عن الحادثة الصغيرة في بلادها فتضخمها وتعظمها حتى تصبح حادثة دولية أو قضية إنسانية لا تنسى، نجد الأحداث الجسام في الجزائر تحمل فتتضاءل حتى تضيع من ذاكرة الشعب التي صنعتها"¹². بل إن غياب بعض الحقائق عن تاريخ الجزائر جعلها

كما يقول "بلاد بلا مؤرخين، والذين تناولوا تاريخها كانوا في الغالب غير مرتبطين بها تاريخيا بل كانوا أعداء لها سياسيا وثقافيا"¹³.

ولتفادي مثل هذه الأخطاء مستقبلا والقضاء على خزعبلات التأريخ الفرنسي في الجزائر دعا مؤرخنا إلى ضرورة التنظير لتاريخ الجزائر وتاريخ الثورة خصوصا في أكثر من موضع ومناسبة، مشيدا بقيمة وأهمية المقاومة العسكرية للمستعمر، لكنها تبقى منقوصة في ظل غياب المقاومة التاريخية، إذ يقول "يمكن القول وبلا مبالغة بأن الثورة الجزائرية هي أعظم ثورة قام بها إنسان العالم الثالث، وهي في نفس الوقت من أعظم ثورات العصر الحديث، ولكن هذا القول سيظل مجرد ادعاء إذا لم تدعمه الوثائق والوقائع، ومن هنا تبرز أهمية تدوين تاريخ الثورة"¹⁴.

وتجلى لنا انعكاسات التبعية التاريخية حسبه في العديد من المظاهر التي تأسف لها كثيرا من اعتماد اللغة الفرنسية بدل لغة الضاد واعتبار الإسلام احتلالا للجزائر وثقافة دخيلة عليها وكذا في محاولة تزوير الكثير من حقائق الثورة التي لا تزال إلى اليوم مغيبة "فكلما ذكرت الجزائر تبادر إلى ذهن المتحدث أو السامع تغلب اللغة الفرنسية والثقافة الفرنسية عليها، وقد يعتقد البعض أن ثقافة الجزائر أصبحت كلها فرنسية، وقد يخفف البعض من ذلك الحكم فيظن أنها فقط تحت تأثير الثقافة الفرنسية."¹⁵، وفعلا أن واقعنا الثقافي لا يزال متفرنسا لغة وفكرا ومن الأسف - كما يقول سعد الله في حواراته المختلفة - أننا نحن الجيل الحاضر نعتزف بما حدث لهويتنا ونلقي باللوم على المحتل ولكننا نفعل حاليا مثله أو أكثر في تدمير هويتنا بأنفسنا، فنحن نحرب هويتنا بأيدينا لا بأيدي الاستعمار، وما دخل الاستعمار اليوم يتساءل سعد الله حين يتحدى تجار العاصمة أجدادهم ومواطنيهم فيكتبون عناوين محلاتهم التجارية بالفرنسية... أليس ذلك تحطيما للهوية؟ وانسلاخا عن الذات؟¹⁶.. والأمثلة كثيرة وكثيرة لا يمكن حصرها ولا ذكرها.

وما يزيد الأمر تعقيدا وخطورة انشغال مؤرخينا وباحثينا بتاريخ أقوام لأخرى ويتحدث صاحب كتاب أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر عن بداية تجربته التاريخية بكل مرارة قائلا "فأسأتذقي كانوا يدرسون لي تاريخ اليونان والرومان، وتاريخ أوروبا ونهضتها وثورتها العلمية، والسياسية، والقومية والاقتصادية، بل كان يخيل إلي أنهم كانوا يدرسون لي كل بلد ما عدا الجزائر، وكنت أتساءل مع نفسي: لماذا ذلك؟ أليس للجزائر تاريخ يستحق الذكر؟"¹⁷.

ومن كل هذه الشواهد والأمثلة يهيب شيخ المؤرخين الجزائريين بضرورة العودة الى تأكيد أهمية التاريخ قراءة وكتابة في ذهن كل جزائري غيور على وطنيته وذلك بكل موضوعية ونزاهة علمية بعيدا عن لغة التقديس المبالغ فيه أو التقليل المخل بقيمة الأحداث التاريخية إذ يقول "إن الجامعات الجزائرية أصبحت تتوفر على نخبة طيبة من الباحثين في هذا الميدان، وأن جيلا من طلاب الدراسات العليا أخذ يتخرج كل عام، وجميع هؤلاء باحثين وطلابا مطالبون بالكتابة عن تاريخ بلادهم في مختلف العصور، وإذا وجدوا صعوبة في الإصداغ بالرأي فليبقوا آراءهم محفوظة مكتوبة لكي يطلع عليها الجيل اللاحق"¹⁸.

ثالثا: من أهمية التاريخ إلى فلسفة التاريخ ودور الوعي التاريخي.

لا يستطيع أحد أن ينكر فائدة الوعي التاريخي في الحفاظ على أصالة الشعوب وذاكرتها في ظل هبوب رياح العولمة والتغيير ونزوح آليات الغزو الثقافي نحو قلاع القومية والوطنية، فكان لزاما علينا الإهتمام بهذا النوع من المقاومة الثقافية التاريخية في زمن لم يعد يعترف بالقوة العسكرية ولا الاستعمارية بقدر ما يسجد خاضعا لهيمنة التبعية الثقافية والسيطرة الإعلامية التي تنتهجها وسائل الإعلام الأجنبية للسيطرة على عقول شبابنا وأبنائنا حتى ينسلخوا عن وطنهم وتاريخهم ولغتهم

ودينهم وحتى انتمائهم السياسي. فالقومية الحقيقية - كما يقول سعد الله - لا تظهر فجأة بل تنمو بقدر نمو الشعب وعيا وثقافة وتوحدا سياسيا¹⁹.

وتتجلى قيمة المقاومة التاريخية مثلا في واقع الكيان الصهيوني مثلا والذي تعير مؤسساته التربوية والجامعية دورا كبيرا لتاريخهم المزيف وذلك من أجل شحن عقول التلاميذ والطلبة بالتعصب للأرض والوطن والحفاظ على مقدساتهم وممتلكاتهم، فساهم ذلك في تأجيج نار الحقد في نفوسهم والغيرة على وطنهم.

لقد آن الأوان بالنسبة للمجتمعات العربية بما فيها الجزائر للاهتمام بهذا النوع من المقاومة الذي ظهرت بذوره منذ الاحتلال الفرنسي إذ يقول في حديثه عن جبهات المقاومة:

"إن التحدي الذي أبداه الغزاة الفرنسيون للجزائريين قد تولدت عنه ردود فعل مختلفة ، مدنية وعسكرية، فالعنف والتعصب الديني والتبجح الفارغ بالحضارة والإنسانية والاستهتار بالدين الإسلامي والقيم الأخلاقية وخيانة المواثيق والاعتداء على الأملاك الشخصية والدينية ، كل ذلك أدى إلى أشكال مختلفة من المقاومة كل بحسب طاقته، وكان ذلك مدعاة للبحث عن وسائل الوحدة وجمع الصفوف والعمل المشترك ضد العدو المشترك ومخاطبة المشاعر العليا التي تحرك الجميع كالدين والوطن، وذلك هو ما يعرف بالضمير الوطني"²⁰.

من خلال تحليلنا هذا القول نستخرج مقولة العلية في انطلاق فتيل المقاومة والتي تتجلى في الإغارة على مقومات الشخصية الوطنية من طرف المستعمر الفرنسي ما ساعد على بروز الضمير الوطني المشترك الذي نظر فلسفيا لاندلاع حرب التحرير الموقرة كغيرها من ثورات التحرر في العالم.

لقد ساهمت المدرسة التاريخية التي خط معالمها أبو القاسم سعد الله في الحفاظ على هذا الضمير الحي درءا لأساليب التبعية والدوبان ويتجلى لنا ذلك في عدة جوانب منها²¹:

✓ إعادة استنهاض وإحياء التراث الجزائري الإسلامي وإبراز مساهمة الجزائر في الثقافة العربية وتحفيز المبادرات الإبداعية لدى أبناء الجيل من خلال مؤلفات :حكاية العشاق(1983)،رحلة ابن حمادوش(1983)،منشور الهداية للفكون(1987)...الخ،

✓ نصرة القضايا الوطنية الجزائرية للحد من تأثير وجهة النظر الاستعمارية وشحذ اعتزاز الأجيال بجهاد الآباء واستلهم دروس التاريخ كما هو الحال في "الحركة الوطنية الجزائرية" بأجزائه الثلاثة وكذا كتابه "أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر" بأجزائه الثلاثة.

✓ كتابة موسوعة التاريخ الثقافي لتسجيل خلفيات الأحداث الباطنة وعوامل التغيير العميقة،وربط الجزائر بمحيطها العربي الاسلامي ودرء تيارات الاستلاب الناسخة والنزعات الانعزالية الهدامة .

✓ الاهتمام بتحليل القضايا المعاصرة في الفكر والمجتمع والسياسة والتي تجلت بشكل واضح في كتابه :منطلقات فكرية،أفكار جامعة،قضايا شائكة،هوم حضارية،...الخ.

ولقد ألح أبو القاسم سعد الله على ضرورة تنمية الشعور بالوطنية والقومية والتي تعني في نظره الشعور المشترك بين جماعة معينة وتشترك في التاريخ والمصير، وبناء على المعنى الأخير، فإن الجزائريين بالإضافة إلى اشتراكهم في الضمير الوطني، كانوا ومازالوا يؤمنون بالأمّة العربية التي يتقاسمون معها التاريخ والثقافة والمصير والحدود الجغرافية، أي أن لدى الجزائريين شعورا قوميا يربطهم بتلك الأمّة ارتباطا عقائديا راسخا²²، وهذا خلافا لما تؤمن به الحركة الكولونيالية التي نفت وجود فكرة القطر الواحد والضمير الوطني للجزائريين قبل الاحتلال الفرنسي.

كما دعا سعد الله إلى ضرورة تحويل الثورة وإنجازاتها الى جملة من المبادئ والنظريات الفلسفية حتى تساهم في إقناع مختلف شرائح المجتمع في أي عصر بأهمية أهدافها إذ يقول:

"لقد عبرت الثورة الجزائرية حتى الآن عن آمال الانسان المضطهد في كل مكان ووضعت لنفسها مبادئ مستوحاة من التاريخ الجزائري ومن نضال الإنسان، تقوم

على التحرير عن طريق القوة والعقيدة معا والقيادة المشتركة، والتحول الاجتماعي المادي دون التضحية بالعوامل الروحية وتحقيق العدالة الاجتماعية دون الدخول في متاهات الصراع الطبقي، ولكن هذه المبادئ مازالت محلية خاصة بنا، ولم تصبح نظريات يستلهمها ويقتدي بها غيرنا، وأعتقد أن نجاح الثورة هو الكفيل بتحويل الخاص إلى عام والمبادئ إلى نظريات، وعلى الثورة أن تنقح الكتاب وأرباب الفكر بأهمية مبادئها وفعاليتها وإنسانيتها أيضا، ذلك أنهم هم الذين يصنعونها في قوالب نظرية خالدة سواء في ديوان شعر حالم أو في كتاب فلسفي جاف، أو في رسالة سياسية ثائرة²³.

اذن يبدو لنا من خلال هذا الطرح دعوة ابي القاسم إلى ضرورة تحقيق التوازن بين العمل والنظر حتى يتم إخراج الحدث التاريخي من قوقعة الزمانية والمكانية إلى صدى العالمية والكلية فيستفيد منها كل دارس لعالم الفكر في كل بقعة من العالم، وهذا لن يتأتى إلا بتحقيق التكامل بين تجربة المناضل وقدرة المثقف والمفكر "إن هناك جيلا صاعدا حسب سعد الله من المثقفين قادرا على تمثل التجربة الثورية للمناضل والتعبير عنها عمليا ونظريا، وليس من الضروري أن يكون المثقف قد عاش الحدث جسميا لكي يتمثله ويصوغه.... فالتاريخ الحق هو الذي تكتبه الأجيال اللاحقة وليس ذلك الذي يكتبه بعض المعاصرين المتأثرين بالعلاقات الشخصية والايديولوجية والحزبية"²⁴. وبهذا يتحرر ابو القاسم من الطرح التاريخي إلى التنظير الفلسفي.

فإذا كان فيلسوف التاريخ هو الذي يستطيع تقديم قراءة عالمية لتسلسل أحداث التاريخ وإعطائها معنى كليا بعيدا عن ركام الأحداث الجزئية كما يقول فولتير، فإنه لن يكون للثورة صدى ولا للتاريخ اعتبار في نظر سعد الله الا إذا تبنى المثقف أو المفكر هذه الأحداث، وهنا تنويه بدور الفيلسوف والمثقف في الحفاظ على الوعي التاريخي وغرسه في عقول عامة الشعب من جهة وبني الانسان من جهة أخرى إذ يقول "إن تبني المثقف للثورة هو الذي سيجعله قادرا على ملء الفراغ الذي يعاني منه تاريخ الثورة، على الأقل الشعبي منه، كما يجعله قادرا على

هضم المبادئ الأساسية للشورة وصياغتها في قوالب نظرية قد تكون أساسا لانطلاقة فكرية جديدة للشورة 25.

خاتمة

نخلص في نهاية هذه الورقة البحثية إلى تأكيد ملمحين أساسيين في فكر أبي القاسم سعد الله:

✓ أولهما يتعلق بدور المقاومة الثقافية وتحديد التاريخ منها في التصدي للأخطار المحدقة بالوجود القومي والوطني للشعوب والمجتمعات والأفراد على حد سواء، وكما قال ابن باديس ذات يوم "أمة بدون تاريخ فهي أمة لا جذور لها"، لهذا ألح قطب المدرسة التاريخية الجزائرية ورائد التاريخ في العصر الحالي إلى ضرورة الاهتمام بالتاريخ كتابة وقراءة من جهة وأهمية التعبئة التاريخية في الحفاظ على الماضي المشترك وفي فهم الواقع المعاش واستشراف المستقبل والحفاظ على المصير، في ظل تنامي المخاطر المهددة من طرف الغرب والتي قد أرست معالمه منذ الاحتلال الفرنسي للجزائر ولا تزال تفعل فعلها إلى اليوم محاولة تشويه تاريخنا وتحريف عقول شبابنا ومسح مقومات الهوية الوطنية من لغة عربية ودين إسلامي وتاريخ حافل بالأبجدات والبطولات .

✓ ثانيهما: تأسيس أبي القاسم سعد الله لمعلم نظرية فلسفية أصيلة في التاريخ وإن لم تبدو ركائزها واضحة للعيان إلا أنه قائمة في مختلف مضامين مؤلفاتها، وتبرير ذلك يتجلى لنا من خلال وجود مقولتي مضامين مؤلفاتها، وتبرير ذلك يتجلى لنا من خلال وجود مقولتي فلسفة التاريخ في مشروعه وهما: العلية والكلية، حيث تمكن مفكرنا من تحديد أسباب تأسيس الوعي التاريخي وهو تأصيل البحث التاريخي وتطهيره من كل شوائب المدرسة الكولونيالية التي علقت به منذ الاحتلال، إيماننا منه بدور التاريخ في تنمية الوعي الإنساني وهو نفس التمثل الذي نجده في نظريات فلسفة التاريخ المشهورة مثل نظرية التقدم أو نظرية الوعي عند هيجل وغيرها، أما مقولة العلمية

فيمكن استقراؤها في دعوته المؤرخين والباحثين في التاريخ إلى ضرورة الخروج من المحلية والقطرية والزمانية إلى العالمية والانسانية والابتعاد عن التفوق على الذات والاكتفاء بتمجيد البطولات والأفراد والشخصيات، بل الالتزام بالموضوعية والنزاهة في البحث ليصبح تاريخ الجزائر ككل تراثا علميا يضاهي تاريخ أوروبا أو تاريخ اليونان وغيرهم.

وفي الأخير يمكن أن نقول أن المرحوم أبا القاسم سعد الله كان بحق وحقيقة شيخ المؤرخين الجزائريين الذي حاول التنقيب والكشف عن الحقيقة التاريخية بكل ما امتلك من قوة وبعد نظر وأفق مستقبلي غير محدود المدى، كما يمكن اعتباره فيلسوف المؤرخين الجزائريين دون منازع جمع في مشروعه بين الضمير والانتماء الوطني والقلق على تاريخ ومستقبل الجزائر وبين النزوع للقراءة الشمولية العلمية لتاريخ الجزائر مشيدا بقيمة الوعي التاريخي في تشييد المقاومة الثقافية والتصدي لمشاريع الهيمنة والادماج والذوبان في وعاء العولمة والتبعية الكولونيالية، لأن التاريخ كما يقول كروتشه "كل التاريخ تاريخ معاصر".

ويبقى التاريخ بمثابة ذاكرة الشعوب وذاكرة سيرورتها الزمانية لقول الشاعر:

ليس بإنسان ولا عاقل من لا يعي التاريخ في صدره
ومن وعى أحوال من قد مضى أضاف أعمارا إلى عمره

الهوامش

1- أبو القاسم سعد الله: بحوث في التاريخ العربي الإسلامي: دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 2003، ص05.

2- فارس كعوان: المؤرخون الجزائريون ونمو الوعي التاريخي: مساهمة في التاريخ الثقافي والفكري (1830-1962)، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراة، جامعة منتوري-قسنطينة-، السنة الجامعية (2010-2011)، ص06.

3- أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج1، دار البصائر، الجزائر، 2007،

ص.04

- 4-المصدر نفسه،ص.03
- 5-أبو القاسم سعد الله:بحوث في التاريخ العربي الإسلامي،مصدر سابق،ص 07.
- 6-أبو القاسم سعد الله:عن الكتابة التاريخية،مجلة الثقافة،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ،العدد 66، 1981 ، ص 05.
- 7- أبو القاسم سعد الله:بحوث في التاريخ العربي الإسلامي،مصدر سابق،ص 05.
- 8-أبو القاسم سعد الله:عن الكتابة التاريخية،مصدر سابق،ص07.
- 9-جريدة الحقائق الأسبوعية،العدد 21،مارس 2007.
- 10- أبو القاسم سعد الله:الحركة الوطنية الجزائرية،ج1،عالم المعرفة،الجزائر،2009،ص.09
- 11- أبو القاسم سعد الله :أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر،مصدر سابق،ص 36،37.
- 12- أبو القاسم سعد الله :عن الكتابة التاريخية،مصدر سابق ،ص.06
- 13-أبو القاسم سعد الله :أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر،مصدر سابق ،ص 53.
- 14- المصدر السابق ،ص 43.
- 15- أبو القاسم سعد الله :بحوث في التاريخ العربي الإسلامي،مصدر سابق ،ص 10.
- 16- حوار مع أبي القاسم سعد الله،جريدة الحقائق الأسبوعية،مرجع سابق.
- 17- أبو القاسم سعد الله:أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر،مصدر سابق،ص.52
- 18- أبو القاسم سعد الله:عن الكتابة التاريخية،مصدر سابق،ص 09.
- 19- أبو القاسم سعد الله :الحركة الوطنية الجزائرية ،مرجع سابق،ص.101
- 20- المصدر السابق،الصفحة نفسها.
- 21- بشير ملاح:مسار قلم أبو القاسم سعد الله،مجلة عود الند،العدد 91،يمكن تصفحها على الموقع الالكتروني: www.oudnad.net

- 22- أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، مصدر سابق، ص. 69.
- 23- المصدر السابق، ص. 48.
- 24- المصدر السابق نفسه، ص. 49.
- 25- أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، مصدر سابق، ص. 49.